

## سورة العنكبوت

هي مكة إلا من أولها إلى قوله : « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » فمدنية ، نزلت بعد سورة الروم ، وعدة آياتها تسع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر في السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته ، وجعله أهلها شيعا ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتحهم المشركون ، وعذبوهم على الإيمان ، دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل ؛ تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا على الصبر ؛ كما قال : « وَوَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

(٢) ذكر في السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عودته إلى مصر رسولا نبيا ، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه وانصره عليهم نصرا مؤزرا وذكر هنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة وإغراق من كذبه من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رهوس الأشهاد - وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص فارون وفرعون ، وهنا ذكرها أيضا ، وبين عاقبة

أعمالها .

(٥) ذكر هناك في الخاتمة الإشارة إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ » ، وفي خاتمة هذه أشار إلى

هجرة المؤمنين بقوله : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)  
 وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ  
 (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤).

### شرح المفردات

الفتنة : الامتحان والاختبار ، ليعلمن الله الذين صدقوا أى ليطهرن صدقهم ،  
 السبق : الغوت والمراد به الغوت عن المجازاة ، والسيئات : هى الشرك بالله والمعاصى  
 التى يجترحونها ، ساء ما يحكمون : أى قبح حكمهم أنهم يهرون منا .

### المعنى الجلبى

بعد أن قال فى أواخر السورة السالفة : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » وكان فى  
 الدعاء إليه توقع الطعن والضرب فى الحرب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه  
 كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق  
 على بعض المؤمنين - أردف ذلك بتنبئهم إلى أن المؤمنين لا يتبين إيمانهم الحق إلا  
 إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن اللذذر أن ناساً ممن كانوا بمكة آمنوا فكتب إليهم أصحاب  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة لا يقبل منكم إسلام  
 حتى تهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فحبسهم المشركون فردوم فنزلت فيهم هذه الآيات  
 فكتبوا إليهم ، أنزلت فيكم آية كذا وكذا ؟ فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد فالتناه ،  
 فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلهم ، فنهزم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم :  
 « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا لَكُمْ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنَ  
 بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال مقاتل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ : « سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » وجرع عليه أبواه وامراته فنزلت « ألم أَحْصِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » الآية .

## الإيضاح

( ألم ) تقدم أن قلنا إنه ينطق بالحروف المقطعة في أوائل السور بأسمائها فيقال : ( أَلِفٌ . لَامٌ . مِيمٌ ) .

والحكمة في البداية بها التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى مايلقي بعدها ، فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئاً غيره ليلفت الخاطب بسببه إليه ، فحينما يكون كلاماً مفهوماً كقول القائل اسم أو ألقِ بالك إلى ، وحينما يكون في معنى الكلام المفهوم كقولك يا على ، وحينما يكون صوتاً غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلفت إليه .

فالنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يقظ الجنان فهو إنسان يشغله شأن عن شأن ، فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمشبهات لا يفهم منها معنى ، لتكون أتم في إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولاً مفهوماً فرمما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتاً لا معنى له جزم بأن هناك كلاماً آخر سيرد بعد ، فيقبل إليه تمام الإقبال ، ويرهف السمع إلى ما سيأتي :

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة في أوائلها حرف التهجى بدأت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو ألم ذلك الكتاب ، المص كتاب أنزل إليك ، يس والقرآن ، ص والقرآن ، ق والقرآن ، حم تنزيل الكتاب — إلا ثلاث سور كهيص<sup>١١</sup> ، ألم أحسب الناس ، ألم غلبت الروم .

وقد حصل التنبية في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كقوله: «يَأْتِيهَا النَّاسُ انْتَقُوا رَبَّكُمْ»، وقوله: «يَأْتِيهَا النَّسِيءُ لَمْ تَحْرُمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ»، من قِبَل أن تقوى الله أمر عظيم، ومثلها تحريم ما أحل الله من غير حروف. وقد عرفت هذه السورة بالحروف وليس فيها البدء بالقرآن أو الكتاب من قِبَل أن فيها ذكر جميع التكاليف، وهي شاقّة على النفس، فحسن البدء بحروف التنبية للإيقاظ إلى ما يليق بعدها:

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أي أظن الذين نجوا من أصحابك من أذى المشركين أن نتركهم بغير اختبار ولا امتحان بمجرد قولهم: آمنا بلك وصدقناك فيما جئتنا به من عند الله، كلاً لمتحنتهم بشاقّ التكاليف كالهجرة والجهاد في سبيل الله ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأتاني المصائب في الأنفس والأموال والنمرات، ليمتاز الخالص من المنافق، والراسخ في الدين من المتزلزل فيه، ويجازى كلا على حسب مراتب عمله.

ونحو الآية قوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ»

والخلاصة: أظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا دون أن يتناولوا بالفرائض البدنية والمالية كالهجرة من الأوطان والجهاد في سبيل الله ودفع الزكاة للفقراء والمحتاجين وإغاثة البائسين والملهوفين.

ثم ذكر ما هو كالتسلية لهم بما نال من قبلهم بالمشاق فقال:

(ولقد فتنا الذين من قبلهم) أي ولقد اخترنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبنهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ، فابتلينا بني إسرائيل بقرعون وقومه وأصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد، وابتلينا من آمن بعيسى بن كذبه وتولى عنه — لا حرم ليصين أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصرهم العداء

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ : « شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً ، فَقَلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُنَا ؟ أَلَا تَدْعُونَا ؟ فَقَالَ : قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُجْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَجْعَلُ نَصْفَيْنِ ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ لِحْمَهُ وَعَظْمَهُ ؟ فَمَا يَصْدهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ؟ وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ ؛ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّئِبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجَلُونَ » .

وعن أبي سعيد الخدرى قال : « دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَاكَ ، فَوَضَعَتْ يَدِي عَلَيْهِ ، فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدِي فَوْقَ اللِّحَافِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ ! قَالَ إِنَا كَذَلِكَ يَضْعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ ، وَيَضْعَفُ لَنَا الْأَجْرُ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ ، قُلْتُ : ثُمَّ مِنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ الصَّالِحُونَ أَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إِلَّا الْعِبَادَةَ يُجِيبُهَا (يَمْرُقُهَا) وَأَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرِّخَاءِ » .

ونحو الآية قوله : « وَكَأَيُّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرًا قَتَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » .

(فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أى وليظهرن الله الصادقين منهم فى إيمانهم من الكاذبين بما يشبه الامتحان والاختبار ، وليجازين كلاً بما يستحق .

وخلصة ماسلف : أيها الناس لاتظنوا أنى خلقتكم سدى ، بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرقى منه فى كل شئونه ، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل واختباركم من آن إلى آخر يانزال النوازل والمصائب فى الأنفس والأموال والثمرات ، والتخلى عن بعض الشهوات ، وفعل التكليف من الزكاة والصيام والحج ونحوها . فحياتكم حياة جهاد وشقاء ، شتمتم أو أيتتم .

و بمقدار ما تصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب ، وتلك سنة الله فيكم وفي الأمم من قبلكم ، وتاريخ الأديان مليء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسول .

(أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟) أى أياظن هؤلاء الذين يجترحون الإثم والفواحش أن يفوتونا ، فلا تقدر على مجازاتهم ولا نستطيع أن نحرم العدل فيهم وما قضت به سنتنا في الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ .

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وعتبة والوليد بن عتبة وعتبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص ابن وائل .

(ساء ما يحكمون) أى بئس حكما يحكمونه هذا الحكم ، وكيف يدور ذلك بخلاصهم وإنما لم تخلق الخلق سدى ؛ بل ربيناهم وهديناهم بضروب من التهذيب والعلم ؛ لعلهم يلحقون في هذا العالم نور جمالى وجلالى .

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)  
وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

### شرح المفردات

يرجو: أى يطمع ، لقاء الله : أى نبيل نوابه وجزائه ، أجل الله: الوقت المضروب للقاءه ، جاهد أى بذل جهده في جهاد حرب أو نفس .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العبد لا يترك في الدنيا سدى وأن من ترك ما كلف به عذب — أردف ذلك ببيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع الله عمله ولا يخيّب أمله ، ثم ذكر أن طلب ذلك من المكلف ليس انفع يعود إلى الله تعالى فهو غنى عن الناس جميعا ؛ ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ومضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة .

## الإيضاح

(من كان يرجو لقاء الله فإن أجل لآت وهو السميع العليم) أى من كان يطمع في ثواب الله يوم لقائه فليبادر إلى فعل ما ينفعه وعمل ما يوصله إلى مرضاته ويحجب ما يبعد من سخطه ، فإن أجل الله الذى أجله لبعث خلقه للجزاء لآت لا محالة ، والله هو السميع لأقوال عباده ؛ العليم بعقائدهم وأعمالهم ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، وفى هذا تنبيه إلى تحقق حصول المرجو والخوف وعدا ووعيدا .

ثم بين سبحانه أن التكليف بجهاد النفس وجهاد الحرب ليس انفع يعود إليه ، بل لفائدة المكلف فقال :

(ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين) أى ومن بذل جهده في جهاد عدو أو حرب نفس فإنما يجاهد لنفع نفسه ، لأنه إنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده ، وهو با من عقابه ، وليس بالله إلى فعله حاجة ، فهو غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل ما يشاء .

وتجو الآية : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ » .

ثم بين بالتفصيل جزاء المطيع فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن

الذي كانوا يعملون ) أى والذين آمنوا بالله ورسوله وصح إيمانهم حين ابتلائهم فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم وعملوا صالح الأعمال ، فأدوا فرائضه وقاموا بها حق القيام ، فواسوا الناس للمهوف ، وأغاثوا المظلوم ، وقدموا لوطنهم ما هو شديد الحاجة إليه ، فرأوا صدقه ، وسدوا ثغره ، وكانوا للمؤمنين سندا ومعينا ، حتى يصيروا كالبنيان يشد بعضه بعضا — لتكفرن عنهم سيئاتهم التي فرطت منهم فى شركهم أو صدرت منهم لساما فى إيمانهم وندموا على ما اجترحوه منها ولتثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون ، فنقبل القليل من الحسنات ، وثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ونجزى على السيئة بمثلها ؛ أو نغفر عنها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ  
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرَجِعِكُم مَّا نَدَّبْتِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)  
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن العمل الصالح يكفر السيئات ويضعف الحسنات — أعقب ذلك بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ، لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الإحسان والطاعة . فالإحسان إلى الوالد بالإتفاق ، وإلى الوالدة بالإشفاق ، إلا إذا حرضاه على الشرك وأمراه بالمطاعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لا يطيعهما فى ذلك ؛ ثم بين أن من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الأنبياء والأولياء ويؤتاه من الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ما أوتى هؤلاء .

روى الترمذى « أن الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه سَخْمَةَ بنت أبي سفيان لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأمه ، قالت له : ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتعير بذلك أبد الدهر يقال : يافانل أمه ، ثم إنهما مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال يا أمه لو كانت لك مائة نفس نخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني ؛ فكلى إن شئت وإن شئت فلا تأكلى ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية ، آمراً بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ؛ وعدم طاعتهم في الشرك » .

### الإيضاح

( ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ) أى وأمرناه بتعهدهما والبر بهما ، والإحسان إليهما ، كما قال في آية أخرى : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا » .

( وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ) أى وإن حرصاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك ، وجاء في الحديث الصحيح « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

ومعنى قوله : ( ما ليس لك به علم ) أنه لا علم لك بإلهيته ، وإذا كان لا يجوز أن يتبع فيما لا يعلم صحته فأحر به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

( إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ) أى مرجعكم جميعاً إلى يوم القيامة ،

من آمن منكم ومن كفر ، ومن بر والديه ، ومن عقى ، ثم أجازيكم على أعمالكم ،  
الجسنة بإحسانه ، والمسئء بما هو أهله .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى والذين آمنوا بالله  
وصدقوا رسوله وعملوا ما يصلح نفوسهم ، ويركئ أرواحهم ويظهرها ، لندخلنهم  
فى زمرة الصالحين ، ونجعلهم فى عدادهم ، فندخلهم الجنة معهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ  
كَمُذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ  
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ  
الْمُنَافِقِينَ (١١) .

### المعنى الجملى

الناس فى الدين أقسام ثلاثة : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر مجاهر  
بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ، ويبطن الكفر فى فؤاده ،  
وقد بين القسمين الأولين بقوله : ( فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين )  
وبين أحوالهما بقوله : ( أم حسب الذين يعملون السيئات ) إلى قوله : ( والذين آمنوا  
وعملوا الصالحات ) ، ثم أورد ذلك بذكر القسم الثالث بقوله : ( ومن الناس من  
يقول آمنا بالله ) الخ .

روى أن الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أودى وضرب  
ظارئد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك  
دهرا وحسن إسلامه .

## الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أى ومن الناس فريق يقول: آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه، جعل فتنة الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، فارتد عن إيمانه، ورجع إلى كفره، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، وعذاب الناس له دافع، وعذاب الله ماله من دافع، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده العقاب الأليم، والمشقة إذا كانت مستتعبة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذاباً.

قال الزجاج: ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله. أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو يعلى عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لقد أؤذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثة، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال».

وخلاصة ذلك: إن من الناس من يدعون الإيمان بالسنتهم، فإذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى منهم، فارتدوا عن الإسلام، ورجعوا إلى الكفر الذى كان متغلغلا في حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم.

ونحو الآية قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ».

(ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أى ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغنايم ليقولن هؤلاء المنافقون: إنا كنا معكم إخوانا في الدين نصرمكم على أعدائكم، وهم كاذبون فيما يدعون.

ونحو الآية قوله: «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ

اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » .

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما في صدورهم ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم فقال : ( أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ ) أى أوليس الله أعلم بما في قلوب المنافقين وما تكنه صدورهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ، فكيف يخادعون من لا تخفى عليه خافية ولا يستتر عنه سر ؟ .

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هي ابتلاء واختبار من الله ليستبين صادق الإيمان من المنافق الذى لا يتجاوز الإيمان طرف لسانه ولا يعوده إلى قلبه فقال :

( وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ) أى وليختبرن الله عباده بالسراء والضراء ، ليميز صادق الإيمان من المنافق ، من يطيع الله فى كل حال فيصبر على اللأواء إذا مسته ، ويعدها اختباراً له ، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوض الأمر فيها إلى ربه ، ومن يعصيه إذا حزبه الأمر ، واشتد به الخطب ، ولا يجد الصبر إلى قلبه سبيلاً .

ونحو الآية قوله : « وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ (١٣)

## شرح المفردات

المراد بالحمل هنا : تبعه الذنوب ، والأثقال واحداها ثِقَل : وهو الحَمْل الذى يثود حامله ، والمراد به الذنب والإثم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف قسر الكفار للمؤمنين على الكفر وإلزامهم إياه بالأذى والوعيد - أردف ذلك بذكر دعوتهم إياه إليه بالرفق واللين حينما أخرج بنحو قولهم لهم : لا عليكم بذلك من بأس ، إننا نحتمل تبعات ذنوبكم ، ثم ردّ مقالتهم ببيان كذبهم ، فإن أحدا لا يحمل وزر أحد يوم القيامة ، ثم ذكر أن المضلين يتحملون تبعات ضلالهم وإضلالهم ، ويكون لهم العذاب على كلا الجزئين .

روى عن مجاهد : أن الآية نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لا تبعث نحن ولا أئمت فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا .

## الإيضاح

( وقال الذين كفروا للذين آمنوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ) أى وقال الكافرون من قريش لمن آمن منهم واتبعوا الهدى : ارجعوا إلى ديننا الذى كنتم عليه واسلكوا طريقنا ، وإن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها وهى فى رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى .

فردّ الله عليهم كذبهم بقوله :

( وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ) أى إنهم لا يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، فإن أحدا لا يحمل وزر أحد كما قال تعالى : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » وقال « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يَبْصُرُونَهُمْ » .

ثم أكد ما سبق وقرره بقوله :

(إنهم لكاذبون) فيما قالوه إنهم يحملون عنهم الخطايا ، قال صاحب الكشاف : وترى المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم : افعل هذا وإثمه في عنق ، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامة وجهلهم اه .

وبعد أن بين عدم منفعة كلامهم لمخاطبيهم ، بين ما يستتبعه ذلك القول من المصرة لأنفسهم فقال :

(وليحملن أثقالهن وأثقالا مع أثقالهن) أى وليحملن الدعاة إلى الكفر والضلال يوم القيامة أوزار أنفسهن وأوزارا أخرى بما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما جاء في الآية الأخرى « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وفي الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » .

ثم ذكر أنهم يوم القيامة يسألون على افترائهم على ربهم فقال :

(وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى وليسألن حينئذ سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبونه في الدنيا بوعدهم من أضلواهم بالأباطيل ، وقولهم لهم : ( اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ) .

### قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) .

## الإيضاح

بعد أن ذكر افتتان المؤمنين بأذى الكفار ، وأرشد إلى أن من قبلهم من الأمم قد فتنوا ، أعقبه بتفصيل من فتنوا من الأنبياء : كنعوح وإبراهيم وهود ولوط وشعيب تسلياً له صلى الله عليه وسلم ، فقد ابتلوا بما أصابهم من المكاره ، وصبروا عليها ، فليكن ذلك قدوة للمؤمنين .

وقد بدأ بذكر أبي الأنبياء وهو نوح عليه السلام فذكر أنه مكث في قومه ألف سنة يدعوهم إلى الله ليل نهار سرا وجهراً ، وما زادهم ذلك إلا فراراً من الحق وإعراضاً عنه ، وتكذيباً له ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، فأنزل الله عليهم طوفان الماء ، فأهلكهم وهم مستمرون في الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات ، ولم يروعوا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة ، فأنجى الله نوحاً ومن معه ممن ركب في السفينة من أتباعه ، وكانت تلك السفينة عبرة وموعظة أمداً طويلاً مدة بقائها على جبل الجودي ، ينظر إليها الناس ، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان ، كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُومًا فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَتَمِيهًا أُنُورًا وَعِيبَةً » وقد تقدم تفصيل هذا في سورة هود .

وجاء النظم هكذا : الإخسین عاماً ، ولم يقل : تسعمائة سنة وخمسين ، لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني فقد يطلق على ما يقرب منه إلى أن ذكر الألف ألخم وأوصل إلى الغرض ، وحجء بالمميز أولاً بالسنة ، ثم بالعام دفعاً للتكرار ، ولأن العرب تعبر عن الخصب بالعام ، وعن الجذب بالسنة ، ونوح لما استراح بقى في زمن حسن .

## العبرة من هذا القصص

لا يحزنك أيها الرسول ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فإني وإن أمليت لهم وأطلت إملاءهم ، فإن مصيرهم إلى البوار ، ومصيرك ومصير

أصحابك إلى العلو والنصر ، كقملنا بقوم نوح : إذ أغرقناهم بالطوفان ، وأنجينا نوحا وأتباعه من راكبي السفينة وجعلناها عبرة للعالمين .

وفي ذلك إيماء إلى أن نوحا قد لبث هذا الأمد الطويل يدعو قومه ، ولم يؤمن إلا القليل ، فصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر ، نقلة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك .

### قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) .

### الإيضاح

(وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أى واذا كر لقومك قصص إبراهيم حين كمل عقله وقدر على النظر والاستدلال ، وترقى من مرتبة الكمال إلى مرتبة إرشاد الخلق ، وتصدى للدعوة إلى طريق الحق ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى السر والعلن ، واتقاء سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

ثم بين لهم فائدة ذلك فقال :

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى فذلك الذى أمركم به خير لكم مما أنتم فيه

إن كان لديكم ذرة من الإدراك والعلم ، تميزون بها الخير من الشر ، وتعلمون ما ينفعكم في مستأنف حياتكم الدنيوية والأخروية .

ثم أرشدهم إلى فضل ما يدعوم إليه ، وفساد ما هم عليه بقوله :

(إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً) أى ماتعبدون من دون الله إلا تماثيل هى مصنوعة بأيديكم ، وتكذبون حين تسمونها آلهة ، وتدعون أنها تشفع لكم عند ربكم .

ثم زاد فى المعنى عليهم والتهكم بهم ، وبيان أن ذلك لا يجديهم نفعا فقال :

(إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) أى إن أوثانكم التى تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئا من الرزق الذى لا قوام لكم بدونه ، فكيف تعبدونها ؟ ثم ذكر لهم من ينبغى أن يعبد فقال :

(فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) أى فالتمسوا الرزق عند الله لا عند أوثانكم تدركوها ما تطلبون ، واعبدوه وحده ، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيد من فضله .

وبعد أن ذكر أنه هو الرزاق فى الدنيا والمنعم على عباده ، بين أن المرجع إليه فى الآخرة ؛ فهو الذى يطلب رضاه ، والتقرب إليه ، والزلفى عنده ، فقال :

(إليه ترجعون) أى واستعدوا للقاءه تعالى بالعبادة والشكر له ، فإنكم إليه ترجعون ؛ فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره ، وأنتم عباده وخلقه ؛ وفى نعمه تتقلبون ، ومن رزقه تأكلون .

ولما فرغ من إرشادهم إلى الدين الحق ؛ حذّرهم من تركه ، وهددهم بما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل فقال :

(وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أى وإن تصدقونى فقد فرتم بسعادة الدارين ، وإن تكذبونى فيما أخبرتكم به فلا تضرونى بتكذيبكم ، فقد كذب أمم

قبلكم رسالهم : كقوم إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، فجرى الأمر على ما سنه الله في الخلق من نجات المصدقين للرسول ، وهلاك العاصين لهم .

( وما على الرسول إلا البلاغ المبين ) أى وما ضر ذلك الرسل شيئاً ، بل هم قد ضلوا أنفسهم ، فما على الرسول إلا التبليغ الذى لا يبقى معه شك ، وما عليه أن يصدقه قومه ، وقد خرجت من عهدة التبليغ ، ولا على بعد ذلك أصدقتم ، أم كذبتم ؟ .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

### شرح المفردات

النشأة : الخلق والإيجاد ، تقبلون : أى تردون بعد موتكم ، بمعجزين : أى جاعلين الله عاجزاً ، من ولي : أى قريب ، ولا نصير : أى معين .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ثم الرسالة بقوله : ( وما على الرسول إلا البلاغ المبين ) شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور ، وقد قلنا فيما سلف : إن هذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها من بعض في الذكر الإلهي ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث .

## الإيضاح

(أولم يروا كيف بيدي الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة ، وتصرفهم في الحياة إلى حين ثم موتهم بعد ذلك ، والذي بدأ هذا قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه كما قال في آية أخرى : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وخلاصة هذا : أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهي أهون عليه ؟ وبعد أن ساق هذا الدليل المشاهد في الأنفس ، أرشد إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة فقال :

( قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ) أي سيروا في الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من السكواك النيرة . ثوابتها وسياراتها ، والأرض وما فيها من جبال ومهاد ، وبرارى وقفار ، وأشجار وثمار ، وأنهار وبحار ، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الذي يقول للشيء كن فيكون .

أوليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شيء ؟ .

وشبهه بالآية قوله في الآية الأخرى : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِينَ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ أُخْتُ » .

ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال :

( يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ) أي يعذب من يشاء ومنكم ومن غيركم

في الدنيا والآخرة بعدله في حكمه على حسب سنته في خلقه ، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته ، فهو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ، لامعقب لحكمه ؛ ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

( وإليه تقلبون ) أى وإليه تردون بعد موتكم ؛ والمراد أنه إن تأخر ذلك عنكم فلا تظنوا أنه قد فات ؛ فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم ؛ وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم .

( وما أتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ) أى إنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سمواته ولا أرضه ؛ بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء فقير إليه ، فلو صعد إلى السماكين ، وهبط إلى موضع السموك في الماء ماخرج من قبضته وما استطاع الهرب منه .

ولما بين أنه مقدور عليهم جميعا لا يقلتون منه ، ذكر أنه لا يستطيع أحد نصرهم فقال :

( وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ) أى وما كان لكم أيها الناس ولى يلى أموركم ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم إن قدر لكم .

ولما قرر التوحيد والبعث هدد من خالفهما وتوعده فقال :

( والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ) أى والذين كفروا بالدلائل التي نصبها سبحانه في الكون دالة على توحيده ، والدلائل التي أنزلها على رسله دالة على ذلك ، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة ، أولئك لا أمل لهم في رحمته ، لأنهم لم يخافوا عقابه ولم يرجوا ثوابه ، ولهم عذاب مؤلم موجه في الدنيا والآخرة .

ونحو الآية قوله : « إِنَّهُ لَا يَبْتَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ  
مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ  
بِعِبَادَتِكُمْ بِبَعْضِ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَأُولَئِكَ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ  
نَاصِرِينَ (٢٥)

### المعنى الجملى

بعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية وإرسال الرسل والحشر والجزاء؛  
أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن أزمهم الحجة ،  
ولم يجدوا للدفاع سبيلا ، حينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب الحجوج المغلوب  
على أمره ، فقالوا لقومهم : ابنوا له بناينا فألقوه فى الجحيم ، فأنجاه الله من كيدهم ،  
وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى لوهمهم بعد أن أخرج من النار ، وقال : إن  
يمسككم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان ، بل عن تقليد وحفظ للهودة بينكم ،  
فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ، ولكنكم يوم القيامة  
تحتاجون حين يزول عى القلوب ، وتستبين الأمور لليب الأريب ، ويكفر بعضكم  
بعضا ، فيقول العابد : ما هذا معبودى ، ويقول المعبود : ما هؤلاء بعبدتى ، ويلعن  
بعضكم بعضا ؛ فيقول هذا لذلك : أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ،  
ويقول ذاك لهذا : أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته ، ويود كل منكم أن  
يبعد عن صاحبه ، وأنى لها ذلك ، وهما مجتمعان فى النار؟ وما لها ناصر يخلصهما منها  
كما خلصنى ربى من النار التى أقيمتونى فيها .

## الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار) أى فلم يكن جوابهم إذ قال لهم : اعبدوا الله واتقوه . إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو أحرقوه بالنار ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه الله منها ، ولم يسأطها عليه ، بل جعلها بردا وسلاما .

ثم ذكر مافى هذا من العبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى إنجائنا لإبراهيم من النار ، وقد ألقى فيها وهى تستعر وتصيرها بردا وسلاما عليه - لأدلة وحججا لقوم يؤمنون بالله إذا عاينوا ورأوا مثل هذه الحجة .

ثم ذكر ماقاله إبراهيم لهم بعد إنجائه من النار :

(وقال إنما اتخذاكم من دون الله آوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى وقال لهم مؤنبا وموبخا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اجتمعتم على عبادتها فى الدنيا للصدقة والألفة التى بين بعضكم وبعض ، فأتممت تحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، كما يتفق الناس على مذهب ، فىكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم ، لالتقيام الدليل عندكم على صحة عبادتها .

وقصارى ذلك : إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعيتكم إلى عبادتها ، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها ، فعبدتموها موافقة لهم لمودتكم إياهم ، كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئا ، فيفعله مودة له .

ثم ذكر أن حالهم فى الآخرة ستكون على نقيض هذا فقال :

(ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وماواكم النار وما لكم من ناصرين) أى ثم تنعكس الحال يوم القيامة ، فتتقلب الصداقة والمودة بغضا

وشتاناً وتبجحادون ما كان بينكم ، ويلعن بمضكم بعضاً ، فيلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع كما قال : « الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » ثم مرجعكم إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله .

فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)  
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

### شرح المفردات

لوط: هو ابن أخى إبراهيم على ماقاله النسابون - مهاجر إلى ربى : أى إلى الجهة التى أمرنى بالهجرة إليها ، وإسحاق هو ابنه الأكبر ، ويعقوب: حفيده وابن إسحاق ، وأجر الدنيا : الرزق الواسع الحنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والصلاح لغة : هو الباقى على ماينبغى ، يقال : طعام بعد صالح أى هو باقى على حال حسنة .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لايفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون - أردف هذا ببيان أنه لم يصدق بما رأى إلا لوط عليه السلام ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام فراراً بدينه وقصداً إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ؛ وآتاه الذكر الحسن إلى يوم

القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب في عداد السكّلة في الصّلاح والتّوى .

## الإيضاح

( فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ) أى فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به ، وقال إبراهيم : إني جاعل بلاد الشام دار هجرتي ؛ إذ أمرني ربي بالتوجه إليها ، ويقال : إن مهجره كان من كوثي من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ في الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاءه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لا فائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقي عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت ختفك ومعه امرأته ، قال : أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيتنه وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ( التي تدب في الأرض ولا تسرع ) وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » .

ثم ذكر العلة في الهجرة فقال :

( إنه هو العزيز الحكيم ) أى إن ربي هو العزيز الذي لا يذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراد به سوء ، الحكيم في تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرّفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامن به عليه من النعم في الدنيا والآخرة كقائه إخلاصه  
فقال :

(١) — (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) أى ورزقناه من لدننا إسحاق ولدًا

ويعقوب من بعده حفيدًا .

ولحج الآية قوله: « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » وقوله: « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » وفى الصحيحين: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم » .

(٢) — (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فلم يوجد نبى بعده إلا وهو من

سلاله ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .

(٣) — (وآتيناه أجره فى الدنيا) فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ،

فبدل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لآمال له ولاجاه وهما غاية الازدة فى الدنيا ، فكثرت ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم: « سَمِعْنَا قَتِيًّا يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » وهذا لا يقال إلا فى المجهول بين الناس؛ إلى أنه تعالى اتخذ خليلًا ، وجعله للناس إمامًا .

(٤) (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى وإنه فى الآخرة لى عداد الكملة

فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره — إنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين ، وآتاه الحسنى

فى الحياتين .

## قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَابًا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

### شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة ، السبيل : الطريق ، وكانوا يتعرضون للسابطة بالقتل وأخذ الأموال .

### المعنى الجملى

بعد أن قص علينا سبحانه قصة إبراهيم وما لاقاه من قومه من العتو والجبروت ، ثم نصره له نصراً مؤزراً - أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصراً له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد أفتن قومه في فعله لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب جاءوا ضيوفاً لإبراهيم عليه السلام .

### الإيضاح

( ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ) أى واذكر قصص لوط حين أرسلناه إلى أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع إليهم فصاروا قومه ، فأنكر عليهم سوء صنيعهم وقبيح أفعالهم التي اختصوا بها ولم يسبقهم إليها أحد من قبلهم ، لفظاعتها ، ونفرة الطباع السليمة منها . ثم فصل هذه الفاحشة وكرر الإنكار عليها فقال :

(١) ( أنتم لتأتون الرجال ) إتيان الشهوة وتستمتعون بهم الاستمتاع بالنساء .  
 (٢) ( وتقطعون السبيل ) أى وتقفون فى الطرقات تتعرضون للمارة تقتلونهم  
 وتأخذون أموالهم .

(٣) ( وتأتون فى نادىكم المنكر ) أى وتفعلون من الأفعال والأقوال فى أنديتكم  
 ومجتمعاتكم ما لا يلىق ويحجل منه أرباب الفطر السليمة ، والمقول الراجعة الحصيفة .  
 أخرج أحمد والترمذى والطبرانى والبيهقى عن أم هانى بنت أبى طالب قالت :  
 « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ( وتأتون فى نادىكم المنكر )  
 فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ( يرمون بالحصى ) أبناء السبيل ، ويستخرون  
 منهم » وفى رواية عن ابن عباس « هو الخذف بالحصى والرمى بالبندق والفرقة ومضع  
 العلك ( اللبان ) والسواك بين الناس وحل الإزار والسباب والفحش فى المزاح » .  
 ثم ذكر جوابهم عن نصحه لهم فقال :

( فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعداب الله إن كنت من الصادقين )  
 أى فما كان جوابهم إذ نهام عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التى حرمها  
 عليهم إلا قولهم : ائتنا بعداب الله الذى تعدنا به إن كنت صادقاً فيما تقول ، ومُنجزاً  
 ما تعد ، وكان قد أوعدهم بالعذاب على ذلك .

وهذا الجواب صدر منهم فى أولى مواعظه ، فلما ألحف عليهم فى الإنكار والنهى  
 قالوا « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » كما جاء فى سورة الأعراف  
 وفى هذا إيماء إلى شديد كفرهم وعظيم عنادهم .

ولما يئس من هدى قومه واتباعهم نصحه طلب من الله نصره فقال :  
 ( قال رب انصرنى على القوم المفسدين ) أى قال رب انصرنى على هؤلاء  
 الذين ابتدعوا الفواحش وجعلوها سنة فيمن بعدهم وأصروا عليها وجعلوا وعيدنا لهم  
 تهكاً وسخرية ، فأنزل عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ  
 الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ  
 فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ  
 رُسُلُنَا لُوطًا سِئِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا  
 مُنْجِيُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى  
 أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا  
 مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

### شرح المفردات

القرية: هي سدوم، الغابرين: الباقين، وهو لفظ مشترك في الماضي وفي الباقى؛  
 يقال فيما غير من الزمان: أى فيما مضى، ويقال الفعل ماضٍ، وغابر: أى باقى،  
 سىء بهم: أى جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء، ضاق بهم  
 ذرعا: أى عجز عن تدبير شئونهم، يقال طال ذرعه وذرعه على الشيء إذا كان  
 قادراً عليه، ومثله ربح ذرعه، وضده ضاق ذرعه، لأن طویل الذراع يقال  
 ما لا يناله قصيره، والرجز: المذاب الذى يلقى التعتب أى يرجمه من قوهلم: ارتجز فلان  
 وارتجس: أى اضطرب.

### المعنى الجملى

لما استنصر لوط عليه السلام بربه بقوله: (رب انصرنى على القوم المفسدين)  
 استجاب دعاءه وبعث انصرته ملائكة، وأمرهم بإهلاك قومه، وأرسلهم من قبل بالبشرى  
 لإبراهيم فجاءوه وبشروه بذرية طيبة ثم قالوا له: إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى  
 أهلها فى الشر وإصرارهم على الكفر والمعاصى، فأشفق إبراهيم على لوط وقال إن

في القرية لوطا فقالوا إنا منجوه وأهلنا إمرأته ، ثم نزل عليهم من السماء عذابا بما اجتروا من السيئات واجتمروا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين وآية بينة لقوم يعقلون .

## الإيضاح

( ولما جاءت رسالتنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ) أى ولما جاءت رسل الله مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب - قالوا لإبراهيم إنا مهلكو قرية سدوم قرية قوم لوط .

ثم ذكروا سبب ذلك فقالوا :

( إن أهلها كانوا ظالمين ) لأنفسهم بتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي ، وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم . ولما قالت له الملائكة ذلك :

( قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها ) أى قال إبراهيم إشفاقا على لوط ليعلم حاله : إن في القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم ، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له ، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين ، وبأن لوطا ليس منهم .

ثم زادوا ما سلف إيضا وطمأنوه بذكر ما يسره من نجاته بقولهم .

( لننجينه وأهلنا إمرأته كانت من الغابرين ) أى لننجينه وأتباعه من الهلاك الذى هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقيات في العذاب للمأثتها بإيham على الكفر والبغى وفعل الخبيثات .

ثم ذكر ما كان من أمر لوط حين مجيء الرسل ضيوفا لديه فقال :

( ولما أن جاءت رسالتنا لوطا سئى بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تحزن ولا تحزن ) أى ولما أن جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسنان الوجوه

خاف عليهم من قوم. وحصلت له مساةة وغم بسببهم مخافة أن يقصدهم أحد بسوء وهو عاجز عن مدافعة قومه وتدبير الخيلة لحمايتهم ودفع الأذى عنهم ، وحين رأوه على هذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له : هوّنْ على نفسك ولا تخف علينا ولا تحزن بما فعله بقومك ، فإنهم قد بلغوا في الخبث مبلغا لا مطمع في رجوعهم عنه مهما نصحت وأخلفت في الإرشاد .

ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه وما يشيرون به إلى أنهم ملائكة فقالوا : ( إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ) أى إنا منجوك من العذاب الذى سينزل بقومك ، ومنجو أتباعك معك ، فلن يصيبكم ما يصيبهم منه إلا امرأتك فإنها من المالكين ، لظاهرها إياهم والميل إلى شد أزرم والدفاع عنهم ، فقد كانت تدلم على ضيوفه فيقصدهم بالسوء ، فصارت شريكة فى الجُرم .

وبعد أن بشروه بالنجاة قالوا له :

( إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ) أى منزلون عليها عذابا من لدنا يرتجزون له ( يضطربون ) وتنخلع له قلوبهم ، لأن الفسق قد تغلغل فى أفتدثهم وصار هجيراً ودينهم .

وأشهر الآراء أن زلزلة خسفت بهم الأرض وابتلعتهم فى باطنها وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة ( البحر الميت ) .

وبعدئذ بين أن ما حل بهم عبرة لمن اعتبر وأذكر فقال :

( ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ) أى ولقد أبقينا مما فعلنا بهم عبرة بينة ، وعظة زاجرة ، لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار ، وجعلناها مثلاً للآخرين .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَ بِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ »

وتقدم أن قلنا آنفاً عند ذكر هذه القصة ما أثبتته الكشوف الحديث

فى هذا الموضع . . .

## قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا أَيُّ وَلَا تَفْسُدُوا ، وَالرَّجْفَةُ: الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ ، جَائِمِينَ: أَيُّ مَقِيمِينَ ؛  
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ (٣٧)

### شرح المفردات

مدین : أبو القبيلة ، وارجوا اليوم الآخر : أى توقعوه وتوقعوا ما يحدث فيه من  
الأهوال ، ولا تعتوا: أى ولا تفسدوا ، والرجفة: الزلزلة الشديدة ، جائمين: أى مقيمين؛  
من جثم الطائر: إذا قعد ولسق بالأرض ، والمراد أنهم ماتوا .

### الإيضاح

( وإلى مدین أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعتوه  
فى الأرض مفسدين ) أى وأرسلنا إلى مدین شعيباً فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحدا  
وأخلصوا له العبادة ، وارجوا بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر وثوابه ، ولا تفسدوا  
فى الأرض ولا تبغوا على أهلها فتنقصوا المكيال والميزان وتقطعوا الطريق على الناس  
بل توبوا إلى ربكم وأنبيوا إليه .

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال :

( فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جائمين ) أى فكذبوه فيما  
جاءهم به من عند ربهم فأهلكهم بزلزلة عظيمة ارتجفت لها القلوب واضطربت  
الأفئدة ، فأصبحوا فى دارهم ميتين لا حراك لهم .

وقد تقدمت هذه القصة مبسوطه فى السور : الأعراف . هود . الشعراء .

## قصص هود وصالح عليهما السلام

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

## الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا عادا قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى قرية من بلاد اليمن . وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحجر قريبا من وادى القرى مع ما كانوا عليه من العتو والشكبر ، وكانت العرب تعرف مساكنتهما معرفة تامة وتمر عليها كثيرا وترى ما حل بها .

وما سبب ما جرى علينا إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله ، وصددهم عن الطريق السوى الذى يوصلهم إلى النجاة ، وقد كانوا متمسكين من النظر والاستبصار ، فلم يكن لهم عذر فى الغفلة وعدم التدبر فى العواقب .

## قصص موسى عليه السلام

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا

فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

## شرح المنعرجات

يقال سبق فلان طالبه : أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أى إدراك ، فتداركوا نحو الدمار والهلاك .

## الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة ، وفرعون ملك الملوك فى عصره ومصره ووزيره هامان ، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل

على صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائتين الله وهار بين من عقابه، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر.

### عاقبة الأمم المكذبة لرسالتها

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

### شرح المفردات

الحاصب: الريح العاصفة فيها حصاء: أى حجارة صغيرة.

### الإيضاح

(فكلا أخذنا بذنبه) أى أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب:

(١) (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) كقوم عاد إذ قالوا من أشد منا قوة؟

فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصى فألقتها عليهم.

(٢) (ومنهم من أخذته الصيحة) كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم

يؤمنوا، بل استكبروا في طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحا ومن آمن معه،

فجاءتهم صيحة أخذت منهم الأصوات والحركات.

(٣) (ومنهم من خسفنا به الأرض) كقارون الذى طغى وبقى، وعصى

الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحا، وتاه بنفسه عجبا، فحسف الله به وبداره الأرض.

(٤) (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح أغرقوا بالطوفان، وفرعون وهامان

وجنودهما أغرقوا في صيحة يوم واحد.

ثم بين أن هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب ولم تكن ظلما

لهم فقال:

(وما كان الله ليضلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى ولم يكن الله ليضلهم بغير جرم اجترموه ، لأن ذلك ليس من سننه تعالى ، وهو لا يوافق منهج الحكمة ، فلا يصدر عن الحكيم ، ولكنه أهلكتهم بذنوبهم وكفرهم بربهم وجحودهم نعمه عليهم وتقلبهم فى آلائه ، وعبادتهم غيره ومعصيتهم من أنعم عليهم .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَنْزَلَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

### المعنى الجملى

بعد أن أسلف - سبحانه - أنه أهلك من أشرك به بما جل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، ولا ينفعه فى الدارين معبوده ، ولا يجديه ركوعه وسجوده - أردف هذا بتمثيل حال من اتخذ معبودا دون الله بحال العنكبوت ، وقد اتخذت لها بيتا لا يريحها إذا هى أوت ، ولا يجيرها من حر أو برد إذا هى توت ، ثم زاد الإنكار توكيدا فذكر أن ما يدعونه ليس بشيء فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشغول بعبادة من ليس بشيء ، ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس ، وأنه لا يدرك مغزاها إلا ذوو الألباب ، الذين يفهمون حياء الكلام وظاهريه ، وسره

وعلايته ، ثم ذكر أنه لم يخلق السموات والأرض إلا الحكمة يعلمها المؤمنون ،  
ويدركها المستبصرون وهي ما أرشد إليها بقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ  
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وبعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه وأظهر الحق ببرهانه ، ولم يهتد بذلك  
المشركون ، سلى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفى النهار وزلفا من الليل ،  
وإرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده وسيجازيهم كفاء ما يعملون من خير أو شر .

### الإيضاح

( مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ) أى مثل  
الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها لدى الشدائد ؛  
فى قبيح احتياهم وسوء اختيارهم لأنفسهم ، كمثل العنكبوت فى ضعفها وقلة حيلتها ،  
اتخذت لنفسها بيتا يكنها من حر وبرد ودفع أذى ، فلم يغن عنها شيئا حين حاجتها  
إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل أمر الله بهم وحل بهم سخطه  
أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا ولم يدفعوا عنهم ما أحل بهم بعبادتهم إياهم .  
وخلاصة ذلك - إن بيت العنكبوت لا يكن ولا يمنع أذى الحر والبرد كما هو  
شأنها فيما ترون ، فكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ،  
ودفع المضار ، وما عبده الكافرون لم يقدم شيئا من ذلك ، فكيف بهم يصرون  
على عبادتهم .

ثم ذكر جهلهم وسوء تقديرهم لما صنعوا فقال :

( وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ) أى لو كان هؤلاء الذين  
اتخذوا من دون الله أولياء - يعلمون أن أولياءهم لا يجدونهم فتىلا ولا قظميرا ؛ كما  
لا يجدى بيت العنكبوت عنها شيئا - ما فعلوا ذلك ؛ لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء

التقدير حدًّا لا يستطيعون معه العلم بعواقب ما يفعلون ؛ ومن ثم فهم يحسبون أنهم يتفهمونهم ويقرّبونهم إلى الله زلفى .

وإجمال ما تقدم : مثل المشرك الذى يعبد الوثن إذا قيس بالموحد الذى يعبد الله ؛ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بأجرٍ وجص أو تحت من صخر ؛ وكما أن أوهر البيوت إذا استقرت بيتا بيتا بيت العنكبوت ، فأضعف الأديان إذا سبرتها ديننا فديننا عبادة الأوثان .

ثم زاد الإنكار توكيدا وتثبيتا فقال :

(إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) أى إن الله يعلم حال ما تعبدون من دونه من الأوثان والأصنام والجن والإنس ، وأنها لا تنفعكم ولا تضركم إن أراد الله بكم سوءا ، وإن مثلها فى قلة غنائها لكم ، كمثل بيت العنكبوت فى قلة غنائها لها . وقد يكون المعنى : ليس الذين يدعون من دونه شيئا ، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لا يسمى شيئا .

(وهو العزيز الحكيم) أى والله هو العزيز فى انتقامه من كفر به وأشرك فى عبادته معه غيره ، فاتقوا - أيها المشركون به - عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة ، فإنه إن نزل بكم لم تكن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئا ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ؛ فهلك من استوجب عمله الهلاك ، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصالح والاستقامة . ثم بين فائدة ضرب الأمثال فقال :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أى وهذا المثل ونظائره من الأمثال التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ؛ فضربها للناس تقريبا لما بعد من أفهامهم ، وإيضاحا لما أشكل عليهم أمره ، واستعصى عليهم حكمه ، وما يفهم مغزاها ومعرفة تأثيرها ، واستباحتها لكثير من الفوائد إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى عواقب الأمور .

روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال «العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه» .

ولما قدم سبحانه أن لا معجز له سبحانه ، ولأناصر لمن خذله ، أقام الدليل على ذلك بقوله :

( خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ) أى خلق السموات والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية ولم يخلقها عبثا ولها ، فبخلقها أمكن إيجاد كل ممكن تعلق به العلم ، واقتضت الإرادة إيجادها ، وأمکن معرفة الخالق الذى أوجدها وعبادته كفاء نعمه ، كما جاء فى الحديث القدسى حكاية عن الله عز وجل : « كنت كمنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فى عرفونى » .

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله ، لأنهم هم الذين يستدلون بالآثار على مؤثرها كما أثر عن بعض العرب : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير » .

ثم خاطب رسوله مسلما له بقوله :

( اتل ما أوحى إليك من الكتاب ) أى أدم تلاوة الكتاب تقريبا إلى الله بتلاوته ، وتذكرا لما فى تضاعيفه من الأسرار والفوائد ، وتذكيرا للناس ، وحملهم على العمل بما فيه من أحكام وآداب ومكارم أخلاق .

( وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) أى وأد الصلاة على الوجه القيم مریدا بذلك وجه الله ؛ والإجابة إليه مع الخضوع والخضوع له ؛ فإنها إن كانت كذلك نهتكم عن الفحشاء والمنكر ؛ لما تحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح ، والوقوف بين يدى الله عز وجل ، والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم ، ففى أقوالها وأفعالها ما يوصى إلى ترك الفحشاء والمنكر ، فكأنها تقول : كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به ؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك

وتعصيه ؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال تدل على عظمة المعبود وكبريائه ، وإخباراتك له ، وإخباراتك إليه ، وخضوعك لجبروته وقهره ؛ إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله .

(ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .

(والله يعلم ما تصنعون) من خير أو شر وهو يجازيكم كفاء أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه ، وهو الحكيم الخبير . ولا يخفى ما فى ذلك من وعد ووعد ؛ وحث على مراقبة الله فى السر والعلانية « إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

تم تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة حاضرة الديار المصرية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى من سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف هجرية . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .